دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

OPEN ACCESS

Submitted: 9 February 2020
Accepted: 11 October 2020

مقالة بحثية (مترجمة)

ما الذي يمكن تعلّمه من القرآن؟ وكيف؟ دراسة في ضوء العقلانية النقدية*

علي بايا
أستاذ الفلسفة، الكلية الإسلامية، جامعة ميدلسكس، المملكة المتحدة، والمعهد القومي لبحوث السياسة العلمية، إيران
apaya@islamic-college.ac.uk

ملخص

تهدف هذه المقالة إلى التعريف بالعقلانية النقدية في الدراسات القرآنية. وتتوزع على ستة محاور، إضافة إلى مقدمة وخاتمة. تعرض المقدمة بعض الملاحظات الأولية حول القرآن والدراسات القرآنية، ويقدم المحور الأول توضيحات مختصرة حول رؤية العقلانية النقدية، أما المحور الثاني فيعرض مجموعة من المفاهيم المرتبطة بالبحث نظير «قابلية الانضغاط بصورة ألوغاريتمية»، و«الأنظمة المعقدة»، و«العمق المنطقي»، في حين يبين المحور الثالث في ضوء المقدمات التي عُرضت في المقدمات السابقة أن القرآن عبارة عن نظام معقد وفق عمق منطقي كبير، ويمكن درك رسالته على أفضل نحو من خلال الاستعانة بالعقلانية النقدية، ثم يتضمن المحور الرابع بحثًا مختصرًا حول علاقة القرآن بأبحاث المعنى، بينما يُجري المحور الخامس مقارنة نقدية مختصرة بين المقاربة المنسوبة إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) حول فهم القرآن المشهورة بـ«منهج استنطاق القرآن» ومقاربة العقلانية النقدية، وأخيرًا يطرح المحور السادس ويعالج بعض الإشكالات المحتملة حول مقاربة العقلانية النقدية للقرآن. وفي الختام، تُعرض نتيجة المسائل المطروحة.

الكلمات المفتاحية: القرآن، العقلانية النقدية، العمق المنطقي، منهجية الاستنطاق، الحدس والظن، اليقين

* ظهرت إصدارات مختلفة قليلًا من هذه الورقة. أود أن أشكر **مجلة الدراسات الإسلامية** وروتليدج على الإذن الطيب لإنتاج النسخة العربية من الورقة. كما أود أن أشكر الدكتور مصطفى دانشقر Mustafa Daneshgar على ترجمة هذه الورقة إلى العربية. إضافة إلى ذلك يود المؤلف أن يشكر البروفيسور ديفيد ميلر والبروفيسور جيريمي شي يرمر، اللذين درسا نسخة مبكرة من النص الإنجليزي لهذه المقالة، وكذلك السيد حسين بايا والسيد رضا الداوود والدكتور عيسى جاهانجير. كما قدّم الدكتور جعفر علمي ومحمد علي إسماعيل نسخةً فارسية مبكرة من المقال، وأشكرهما على الاقتراحات المفيدة التي اقترحاها لتحسين المقال. ويود المؤلف أيضًا أن يشكر المحرر والمراجع المجهول لمجلة **تجسير** على تعليقاتهم البناءة على الورقة، ويبقى المؤلف نفسه هو المسؤول عن أوجه القصور المحتملة في المقال.

للاقتباس: بايا، «ما الّذي يمكن تعلّمه من القرآن؟ وكيف؟ دراسةٌ في ضوء العقلانيّة النقديّة»، **مجلة تجسير**، المجلد الثاني، العدد 2، 2020

https://doi.org/10.29117/tis.2020.0042

© 2020، بايا، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

OPEN ACCESS
Submitted: 9 February 2020
Accepted: 11 October 2020

Research Article (translated)

What and How can We Learn from the Quran?

A Critical Rationalist Perspective

Ali Paya
Professor of Philosophy, The Islamic College, Middlesex University, UK & National Institute for Science Policy, Iran
apaya@islamic-college.ac.uk

Abstract

This paper aims to introduce a critical rationalist approach to studying the Quran. Following a very short introduction, I shall introduce the main tenets of critical rationalism (Sec. 1). In the second section, I shall briefly discuss a cluster of related notions, namely, 'algorithmic compressibility', 'complex systems', and 'logical depth'. Taking stock from this discussion, I shall argue in the next section (Sec. 3) that the Quran is a complex system with a significant logical depth and that its message can be best understood with a critical rationalist approach. Section four deals, in a very brief manner, with the all-important discussion concerning the relevance of the notion of 'meaning' to the understanding of the Quran. I shall then explore in the fifth section possible similarities between the critical rationalist approach and the approach introduced by Ali ibn Abi Talib in his Nahj al-Balaghih, known as the method of istintaq (interrogation). In section six, some possible criticisms of the critical rationalist approach to studying the Quran will be considered. The paper will close (conclusion) with a recapitulation of the main arguments introduced in the previous seven sections.

Keywords: The Qur'an; Critical rationality; Logical depth; Methodology of interrogation; Intuition and doubt; Awareness

Cite this article as: Paya A., "What and How Can We Learn from the Quran? A Critical Rationalist Perspective", *Tajseer*, Volume 2, Issue 2, 2020

https://doi.org/10.29117/tis.2020.0042

© 2020, Paya A., licensee QU Press. This article is published under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0), which permits non-commercial use of the material, appropriate credit, and indication if changes in the material were made. You can copy and redistribute the material in any medium or format as well as remix, transform, and build upon the material, provided the original work is properly cited..

مقدمة

لقد تطور الحقل المعروف باسم «الدراسات القرآنية»، ضمن نطاق أكبر وأوسع يسمى الدراسات الإسلامية. ويمكن البحث عن الجذور الأولية لهذا المجال من الدراسات ضمن جهود المسلمين الأولى من أجل فهم الرسالة التي جاء بها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من عند الله. لقد درس الباحثون المسلمون وغير المسلمين القرآن من أبعاد وزوايا مختلفة.

ونظرًا إلى أهمية القرآن، فإن كل سعي يسهم في مساعدة القارئ من أجل فهم أفضل لرسالة هذا الكتاب بطريقة عينية، لا بد لعشاقه من أن يغتنموه. والدراسة الحالية قائمة على مقاربة معرفية فلسفية خاصة موسومة بـ «العقلانية النقدية» (Critical Rationalism). وسأوضح الأبعاد الأساسية لهذه المقاربة في المحور التالي.

أولًا: العقلانية النقدية

العقلانية عبارة عن طريقة حياة ومنهج لسلوك فكري ورؤية لمقاربة فلسفية. عرض هذه المقاربة لأول مرة كارل بوبر، الفيلسوف ذو الأصول النمساوية البريطانية[1]، وانتشرت بفضل بعض تلامذة بوبر ومساعديه[2]. وتتمثل بعض الأبعاد الجذرية لهذه الطريقة الحياتية والاستشراف المعرفي فيما يلي[3]:

العقلانية النقدية عبارة عن بحث لنيل المعرفة والحقيقة «التخلص من اكتساب المعرفة العابرة» ونيل الحرية المعنوية. وتسعى المقاربة النقدية إلى عرض تقييم نقدي لكل الميول والأفكار والبنى والمذاهب، وجميع ما يطلق عليه اصطلاحًا اسم المعرفة والحرية.

يؤكد العقلانيون النقديون أن كل ما نرتبط به يجب أن نلحظه باعتباره مرجعًا - بالقوة - للاستدلال العقلاني والدراسات المعقولة، ونتعامل وفقًا لهذه المقاربة: قد نكون على خطأ وغيرنا على صواب، ولكن يمكن من خلال السعي والاجتهاد الاقتراب من الحقيقة أكثر[4].

تقوم العقلانية النقدية باعتبارها إطارًا منهجيًا معرفيًا على ما يلي:

- هناك واقع ليس من صناعة الذهن واللغة والفكر والاعتبارات بين الناس، وهذا الواقع قابل لأن يدركه البشر.
- كل المعارف ظنية وقابلة للترديد وتبقى على هذا الحال باستمرار، وعلى الرغم من ذلك فإن الاقتراب من إدراك حقيقي للواقع - سواء الواقع الطبيعي أو الواقعية الاجتماعية - عبر سبيل التعلم من الأخطاء والتأمل في أخطاء الآخرين ليس محالًا.
- المشاهدات المعقدة كافةً هي في النظريات وخلفياتها.

1 - Karl Popper, *The Open Society and Its Enemies (London: Routledge, 2002 [1945]); Karl Popper, The Poverty of Historicism (London: Routledge, 2002 [1945]); Karl Popper, The Logic of Scientific Discovery (London: Routledge, 2002 [1934, 1959]); Karl Popper, Conjectures and Refutation (London: Routledge, 2002 [1963]), Karl Popper, Objective Knowledge (Oxford: Oxford University Press, 1979 [1972]); Karl Popper, The Myth of the Framework (London: Routledge, 1994).*

2 - وتشمل هذه الفلاسفة التالية من بين البعض الآخر: ديفيد ميلر، ووليام بارتلي الثالث، جوزيف أغاسي، جيريمي شيرمر وإيان جاروي.

3 - هذا البحث بعضه مبني على المقالات والكتب الأكاديمية التالية لعلي بايا التي استفدتُ منها لآراء بوبر وميلر وبارتلي، وقد أشير إلى ذلك أعلاه.
Ali Paya, "Critical Rationalism as a Theoretical Framework for Futures Studies and Foresight," *Futures, no. 96 (2018), pp. 104-114;* Islam, modernity and a new millennium: *Themes from a critical rationalist reading of Islam, (London: Routledge, 2018/2019); Methods, Methodologies and Perspectives in the Humanities and Social Science, With Particular Reference to Islamic Studies (London: ICAS Press, 2020). forthcoming*

4 - Popper, *The Myth of the Framework; William Bartley III, "The Philosophy of Karl Popper: Part III. Rationality, Criticism, and Logic," Philosophia, vol. 11, no. 1–2 (1982), pp. 121-221.*

- التبرير بأي نحو كان ليس فقط غير مطلوب، بل إنه غير ممكن.
- المقاربة الاستقرائية في كونها منهجًا استنتاجيًا منطقيًا ليست معتبرة، ولا يمكن اعتبارها منهجًا للكشف.
- مسألة الاستقراء - أي تعميم الشواهد والمعطيات الموجودة في نطاقات لا يمكن نيلها - هي أحد فروع مسألة التفكيك بين المعرفة الأصيلة وشبه المعرفة. والأخيرة ناظرة إلى هذه المسألة وهي ما الذي نتعلمه، والأولى ناظرة إلى أنه كيف نتعلم[5].
- تطور المعرفة اللائقة بالواقعية وذات المحتوى هي التي تحظى بالأهمية، وليس «المعرفة لذات المعرفة».
- تتطور المعرفة على نحوين)مكملين لبعضهما بعضًا): نحو سلبي وآخر إيجابي. تطور المعرفة على نحو سلبي ناظر إلى دحض تخميناتنا حول الواقعية عن طريق توضيح أخطائها ونقائصها. وإن ما نتعلمه في هذه العملية حول الواقعية هو أن الواقعية مهما كانت فهي ليست مثلما كانوا يدّعون في التخمينات المدحضة. أما تطور المعرفة على نحو إيجابي فناظرٌ إلى التخمينات القوية التي ما زالت باقيةً إلى اليوم، على الرغم من جهودنا الحثيثة والصادقة من أجل إبراز أخطائها ونقائصها. هذا النوع من الادعاءات يقدم لنا أفضل معرفة مؤقتة حول الواقعية)إلى أن تستبدل بتخمين أو تخمينات أفضل).
- لا يمكن أن تكون المعرفة الإنسانية مطلقةً وقطعية يقينية ومبررة. وبعبارة أخرى، المعرفة البشرية - التي هي ظنية وقابلة للترديد دومًا - لا يمكن أن تعرض الواقع بدقة (بالالتفات إلى كل أجزائه، بحيث يكون غير محدد وغير محدود ولامتناهيًا). إن البشر - بما أنهم موجودات تخطئ وتصيب وذوو استعدادات إدراكية محدودة - لا يمكنهم الإحاطة بالأمر اللامتناهي. وأرقى تخميناتهم هي تقريب إلى بعض أبعاد الواقعية.

تطور المعرفة يكون عبر التعامل مع الأزمات والبؤر التي تعرضها علينا الواقعية بأشكال مختلفة فقط. وفي جواب هذه الأزمات نتصور ونرتب تخمينات باعتبارها أجوبةً ممكنة. هذه التخمينات بعد ذلك يجب جعلها في معرض أدق تقييم نقدي؛ حتى تتضح نقائصها وأخطاؤها على أمل أنْ نستطيع في الخطوة اللاحقة بلوغ تخمين أقل خطأً باعتباره جوابًا أو طريقًا للحل. وبما أننا موجودات غير معصومة وذات استعدادات إدراكية محدودة؛ فإننا نعلم رويدًا رويدًا أن كل ما نصنعه - سواء كان تخمينًا لفهم العالم أم أداةً لتغييره - سوف لا يكون خاليًا من العيب والنقص. وعلى هذا، فإن جهودنا في طريق تطور المعرفة يجب أن تنصرف، بسرعة، إلى معرفة أخطاء معلوماتنا بنيّة حذفها ومعالجة قسم منها، وكذلك التعلم من مقاربات الخطأ بهدف اجتنابها. ويعرض المخطط التالي نموذجًا لتطور المعرفة عبر التعلم من أجل إزالة الخطأ.

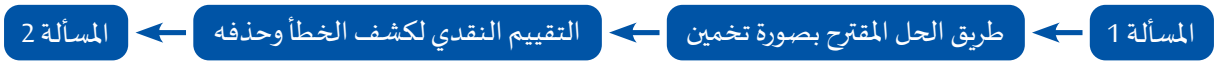

نموذج تطور المعرفة عن طريق حذف الخطأ (النموذج المبسط)

في المخطط السابق، تتضح المسائل والأزمات التي تُعرض علينا في مختلف الميادين عن طريق الواقعية. طريقة الحلول المقترحة جميعها في قالب تخمينات نعرضها من أجل التغلب على الأزمات. وكل طريق يجب أن يخضع لتقييم نقدي حتى تتضح نقاط قوته، والأهم من ذلك نقاط ضعفه. وبوضوح، فإن نقاط الضعف يُشرَع في السعي من أجل رفعها واستبدال التخمينات الأولية بتخمينات وطرق حلول أخرى. إن إحدى علامات أي سعي معرفي بنّاء يتحرك في الطريق الصحيح هو ظهور المسائل الأساسية والجديدة عقب كل تعامل من أجل مواجهة الأزمات، والدليل على هذه المسألة أنه بناءً على فرضية العقلانيين النقديين بأن الواقعية غير متناهية، فالتعامل مع أي بُعد فيها يكشف عن أبعاد أخرى مرتبطة معها تكون أحيانًا

5 - David Miller, *Out of Error (London: Routledge, 2017 [2006]).*

في ثنايا عميقة أو في مواضع ومقامات أخرى، وبانكشاف آثارها العليّة تتضح أزمات جديدة بلحاظ المعرفة الأدق للواقعية والاستعدادت الكامنة فيها.

- يجرى التقييم النقدي للتخمينات أو الادعاءات المعرفية بطريقتين: تلك المجموعة من التخمينات التي تفتقد مضمونًا قابلًا للاختبار التجريبي أو تعجز التجربة عن أن تنال أبعادها الواقعية، فإنها تقيّم وفق أساليب عقلانية، ومنطقية وتحليلية - نظرية. وتلك المجموعة من التخمينات أو الادعاءات المعرفية التي تكون ذات محتوى تجريبي، فإنها علاوةً على الأسلوب السابق، تقع ضمن تقييم نقدي بالأساليب التجربية.

- تطور المعرفة منوط بأخلاقية فاعلي المعرفة. فالأخلاقية يظهر تأثيرها على الأقل في الصورة التالية: فاعلو المعرفة يجب أن ينظروا إلى الآخر الذي يعدّ منبعًا لاكتساب المعرفة البديعة باعتباره غايةً في نفسه وليس وسيلةً لبلوغ الهدف. وعلى فاعلي المعرفة كذلك الابتعاد عن الاستعانة بالأساليب النقدية غير المؤثرة حين تقييم الادعاءات المعرفية وخاصةً التخمينات التي اقترحوها هم أنفسهم.

- حسب رؤية العقلانيين النقديين، هناك علاقة مباشرة بين تطور المعرفة والكثرة والتعددية في النظام البيئي المعرفي. ففرصة الوصول إلى تخمينات تكون في طريق الصواب وفي سبيل عرض تقريبي للحقيقة المنعكسة، في النظام البيئي الذي تعرض فيه رؤى وتخمينات متنوعة هي أكبر بدرجات من الأنظمة البيئية التي تحكمها أفكار منفردة.

- يقسّم العقلانيون النقديون الواقعية وفق لحاظ معين إلى الأقسام التالية: فذلك القسم من الواقعية الذي أعطى للعالم المادي موضعًا فيه يسمى «العالم 1» (W1). الأبعاد المعرفية والنفسية والإحساسية والإدراك لكل فرد بشري تسمى «العالم 2» (W2). وبتعامل العالم 1 مع العالم 2 تظهر واقعية جديدة تتمثل في الموقع الشامل لكل المصنوعات المعرفية واللسانية للإنسان من أجل التعامل مع أزمات الواقعية. إن كل النظريات والتخمينات، والأسس الأخلاقية، والقوانين والمقررات، وخطط المؤسسات، والآلات والأدوات، وكل أنواع التكنولوجيا الأخرى، وصورة كل النغمات وأنواع الموسيقى، والصور، والرسومات... إلخ هي «العالم 3» (W3)[6]، وهو عالم الواقعية والعينية. فهو واقع، لأن أهم معيار الواقعية هو التوفر على قدرة التأثير في الواقعيات الأخرى. والكيانات الموجودة في العالم 3 تتمتع بهذه القدرة. فعلى سبيل المثال، الخطاب أو الكتاب يمكن أن يترك تأثيرًا في أفراد العالم 2 ويجبرهم على القيام بنشاطات في العالم 1. هذا العالم مع ذلك هو عيني، لأنه يتمتع بشرط العينية. والعينية تعني «قابلية النيل وقابلية التقييم النقدي على المستوى العام»[7]. وما يقع في العالم 3 يمتلك هذا الشرط. والعوالم الثلاثة تتأثر وتؤثر في بعضها بعضًا من خلال العالم 2.

- العالم 2 واسطة بين العالمين 1 و3. والتحولات في العالم 1 تبعث على أزمات لفاعلي المعرفة للعالم 2. وتندرج صورة معالجة هذه الأزمات في العالم 3. وما يندرج في العالم 3 يمكن أيضًا أنْ يطرح أزمات جديدةً لفاعلي المعرفة، ويجبرهم على إعمال تغييرات على العالم 1.

- الادعاءات المعرفية يجب أن تكون عينيةً)وبالعبارة التي ذكرت أعلاه). المعرفة بهذا الاعتبار تتعلق بالعالم 3. كل فرد بشري في العالم 2 قد يتمتع أحيانًا بالمعرفة)على نحو ادعاءات معرفية). لكن بما أن هذه الادعاءات ليست عينية، فإن معرفة العالم 2 لا تعد معرفةً عينية.

6 - Popper, *Objective Knowledge.*

7 - Ali Paya "The Misguided Conception of Objectivity in Humanities and Social Sciences," in: *The Crisis of the Human Sciences False Objectivity and the Decline of Creativity, Thorsten Botz-Bornstein (ed.) (Kuwait: Gulf University for Science & Technology Publications, 2011).*

- إن اليقين له علاقة بالمجال النفسي للشخص وليس أمرًا معرفيًا. وإلقاء اليقين في الأفراد هو أمر ممكن، وذلك من خلال الاستعانة بالعلل الخارجية، كالإعلانات، وغسيل الدماغ، ووصل الإلكترونيات بالدماغ للتأثير فيه عن طريق التيارات الكهربائية والكهرومغناطيسية ونظير ذلك. لكن اليقين الذي يأتي من هذه الطرق فاقدٌ لأي قيمة معرفية. واليقين الذي يحصل للشخص في التجارب الشهودية الشخصية والتجارب الوجودية الحية يمكنه أحيانًا أن يخلق معرفةً للشخص. إلا أن هذا النوع من المعرفة لا يمكن تحصيله بصورة عامة، (وما دام الأمر كذلك) فهو من ثم لا يعد معرفةً (بالمعنى الدقيق للمصطلح). إن المعرفة مثلما ذكرنا يجب أن تكون قابلةً للتحصيل والتقييم النقدي عمومًا[8].

- كل ما يحتل موقعًا في العوالم الثلاثة وينال معرفته البشر فإنه بالضرورة يكون ضمن حدود هذه العوالم الثلاثة. ففي كل واحد من العوالم الثلاثة هناك استعدادت غير متناهية بالقوة، بحيث إنها غير متعينة، وحسب الأصول يمكن أنْ تتحول إلى الفعلية. يتمتع العالم 3 بكيانات نظير السلاسل الرياضية اللامتناهية، بحيث إنها غير متناهية وغير متعينة على نحو كبير.

- كل النظريات والتخمينات والفرضيات، وأمثال ذلك، التي يجب أن يستنتجها البشر حين مواجهة الواقعية، يجب أن تكون مصنوعةً من قِبل البشرية. فالواقعية لا تقترح أي حل أو تخمين أو نظرية. ودور الواقعية بمكانة حَكَم وقاضٍ يصحح ادعاءاتنا المعرفية[9]. فإذا لم يكن طريق الحل المقترح يسير في الطريق الصحيح فإن الواقعية تدحضه وتردّه. لكن مع كل ذلك، فإننا نكتسب – على نحو سلبي - المعرفة حول الواقعية. ومن طرف آخر، إذا كانت النظرية أو التخمين المقترح من قِبلنا قويًا، ففي تلك الحالة فإن أقصى شيء يمكننا استنتاجه هو أنه في الوقت الحالي وإلى حين أن تتضح واقعية نقصان تخميننا المقترح، يمكننا أن نعتبره صحيحًا (يعني أنه في طرف الاقتراب من معرفة الواقعية، على نحو تقريبي) وأنْ نستفيد منه في حل المسائل العملية.

- في سبيل اكتساب المعرفة بمنهج عرض التخمينات والسعي لتصحيح نقائصها، يجب التفكيك بين مجالين وصعيدين: مجال الاكتشاف وصعيده، ومجال الحكم والتقييم وصعيده. ودور هذين المجالين والصعيدين في الإنتاج مختلف، إلا أنهما مكملان لبعضهما. فلا يمكن أي واحد من هذين المجالين والصعيدين بمفرده إنتاج المعرفة. فمجال الاكتشاف وصعيده يتعلقان بالنطاق النفسي الشخصي. وهذان المجال والصعيد يرتبطان ارتباطًا وثيقًا بالعالم 2 لكل فرد. وهذا النطاق الذي قد يستلزم، نتيجة الاجتهاد المستمر والمنظم للشخص من أجل حل المسائل والتغلب على الأزمات التي تطرحها أمامه الواقعية، (بشرط إحراز الشروط التي ستوضَّح لاحقًا) إمكانية انكشاف طريقة حل المسائل المنظورة في صورة إشراق بصيرة، وإلهام غيبي، وتجلٍ شهودي وأمثال ذلك. وهذا النوع من التجريبيات، جميعها من سنخ التجريبيات الوجودية والشخصية، وليس لها بعد معرفي، ولا تلبث طويلًا، ولا تقبل بعينها التكرار مثل أي تجربة أخرى. وللانتفاع من هذه التجارب، ينبغي إعادة تحديثها من خلال الذاكرة واللغة والمفاهيم. والصورة المستحدثة للتجارب الشخصية عندئذ ينبغي أن تخضع في «مجال الحكم والتقييم وصعيده» للنقد على المستوى العام؛ حتى تتضح نقائصها. الصورة المستحدثة للتجارب الشخصية بتمامها لا يمكنها بتاتًا أن تستوعب أبعاد التجربة المنظورة كافة، وإنما هي صورة تقريبية وناقصة عن تلك الواقعيات الحية. وهذه الملاحظة طبعًا تصدق في مورد كل الحالات التي يستحدث فيها بعد من أبعاد الواقعية من خلال اللغة ومفاهيمنا المصنوعة. ورغم ذلك، فإن الاقتراب من المعرفة الأدق والأصح - الواقعية - من خلال هذه الصورة المستحدثة ليس محالًا، بل هو متاح وفق الأسس.

---

8 - Popper, *Objective Knowledge; Paya, "Misguded Conception";*
علي بايا، الفلسفة التحليلية من منظور العقلاني النقدي (طهران: دار طرح نو، 2016).

9 - Popper, *The Myth of the Framework, Ch. 1.*

ثانيًا: الأنظمة المعقدة، قابلية الانضغاط بصورة ألوغاريتمية[10]، العمق المنطقي والقرآن

الأنظمة المعقدة من جملة الظواهر التي جلبت إليها أنظار العلماء والمحققين في القرنين الأخيرين. وفي العقود الأخيرة، حصلت تطورات كثيرة في مجال البحث في خصوص أنواع الأنظمة المعقدة ومميزاتها وكيفية عملها.

وفي الستينيات، كان بعض المحققين (أندريه كولموكروف Andrei Kolmogorov في الاتحاد السوفياتي، وغرغوري تشيتين Gregory Chaitin في أميركا) قد اشتغلوا على تطوير العلم الجديد للمعلومات، واقترحوا النموذج التالي من أجل تحديد الأنظمة المعقدة والتمييز بين هذا النوع من الأنظمة ونوعين آخرين من الأنظمة؛ أي الأنظمة البسيطة والأنظمة الفوضوية، وبينوا أنه يمكن تحديد درجة تعقيد نظام ما من خلال مدى أقصر وصف يمكن أنْ يوصف به[11].

فالأنظمة البسيطة هي تلك التي يمكن وصفها بأوصاف قصيرة. وتكون في قبال الأنظمة التي عملُها عشوائي (Random) أو الأنظمة الفوضوية (Chaotic)، بمعنى أن الأنظمة التي لا يمكن تحديد أي نموذج منظم لها يمكن وصفها من خلال خبر بسيط، إلا أنه يفتقد مضمونًا معلوماتيًا غنيًا، نظير القول: «النظام الفاقد لأي نموذج منظم»؛ أو من خلال خبر طوله بمقدار طول النظام: أيْ إنه على مقدار كل جزء من النظام يكون وصف مقابل لذلك الجزء. وبهذا اللحاظ، فإن الأنظمة التي يكون العمل فيها عشوائيًا، أو الأنظمة الفوضوية، لا يمكن بيانها من خلال رسائل مختزلة بنحو ألوغاريتمي.

تقع الأنظمة المعقدة في قبال الأنظمة البسيطة، العشوائية والفوضوية، بحيث يمكن تبيّنها من خلال بيان مختزل على نحو ألوغاريتمي. على سبيل المثال، يمكن تبيين عمل نظام متشكل من الشمس وبقية كواكب المنظومة الشمسية من خلال قوانين نيوتن الميكانيكية. وهذه القوانين هي صورة ألوغاريتمية مختزلة لأوصاف هذا النظام المعقد. وبعبارة أخرى، الأنظمة المعقدة نظير نظام المنظومة الشمسية، الذي تقبل أوصافه الاختزال في صورة ألوغاريتمية، تتمتع بنماذج عملية منظمة. وهذه النماذج العملية التي تكون في قالب أوصاف ألوغاريتمية مختزلة هي قابلة للعرض[12].

عندما تعرج أنظار العلماء إلى أعظم نظام معروف، أي كل الكون، سترى أن لهذا النظام نوعًا خاصًا من التعقيد يختلف عن تعقيد نظام آخر كالمنظومة الشمسية. فنظام نظير الكون يتمتع بأنظمة مكررة ونماذج منظمة تقبل التبيين في صورة بيانات تقبل الاختزال على نحو ألوغاريتمي. هذا من جهة، ومن جهة أخرى له أبعاد فوضوية بصورة كاملة، بحيث لا يمكن تحديد أي نظم مشهود فيها. والعلماء، من أجل تحديد هذا النوع من الأنظمة المعقدة، يستخدمون عبارة «التعقيد المنظم» (Organised Complexity)[13]. والأنظمة المعقدة كافة نظير الكون، الذي هو تركيب من الأنظمة المشهودة وعرض لأبعاد لا يمكن للنظم المشهود التعرف إليها فيه، لها هذا النوع من التعقيد.

وقد خطا الخطوة التالية في معرفة الأنظمة المعقدة تشارلز بينيت، العالم الأميركي الذي يعمل محققًا في مؤسسة «آي بي أم». وقد اقترح بينيت منهجًا في تحديد الأنظمة المعقدة بواسطة طريقة كيفية نوعًا ما، وليس على أساس مدى أقصر وصف ممكن للنظام. ويستند منهجه المقترح إلى مفهوم «العمق المنطقي» (Logical Depth) الذي يعتبر معيارًا لتقييم «كيفية» أو «قيمة» أو «عمق» البيان الذي يستخدم في وصف نظام معين[14]. بعبارة أخرى، اقترح بينيت أنه كلما كان العمل - الذي يكون مبدع نظام معين قد أنجزه وأنتجه - أكثر، فإن العمق المنطقي للنظام المنتج - أي ميزان المعلومات المندرج فيه، المرتبط بنوع العمل المنجز - سيكون أكثر.

---

10 - Algorithmic Compressibility.

11 - Paul Davies, *"Algorithmic Compressibility, Fundamental and Phenomenological Laws," in: Laws of Nature: Essays on the Philosophical, Scientific and Historical Dimensions, Friedel Weinert (ed.) (Berlin: Walter de Gruyter, 1995), p. 250.*

12 - Davies, "Algorithmic Compressibility".

13 - Paul Davies, *The Mind of God (New York: Simon & Schuster, 1992), p. 136.*

14 - Charles Bennet, "Logical Depth and Physical Complexity," in: *The Universal Turing Machine: A Half-Century Survey, Rolf Herken (ed.) (Oxford: Oxford University Press, 1998), pp. 227-257.*

إن «العمق المنطقي» و«قابلية الاختزال في صورة ألوغاريتمية» هما معياران لتقييم درجة تعقيد الأنظمة المعقدة. ولما كان في الإمكان استنساخ الأنظمة المعقدة بالاستعانة بجهاز الحاسوب، فإن في الإمكان تبيين الفرق بين المعيارين على هذا النحو: «في حين ركز معيار قابلية الاختزال على نحو ألوغاريتمي اهتمامه في مدى أقصر برنامج حاسوبي (البرمجيات) يمكن له أن يستحدث النظام المنظور، فإن معيار العمق المنطقي قد اهتم بأقصر مدة زمنية يجب أن يعمل فيها الحاسوب من أجل استنساخ النظام المنظور»[15]. ويرتبط مفهوم «العمق المنطقي» وغنى معلومات الأنظمة المعقدة ارتباطًا وثيقًا بمفهوم درجة النظام المشهود في هذا الأنظمة. والعلماء استخدموا مفهوم «إنتروبيا» (Entropy) لبيان درجة «عدم انتظام» الأنظمة. والإنتروبيا عبارة عن عدد الأساليب المختلفة التي يمكن من خلالها إحداث تغيير في الأجزاء الأصغر للنظام من دون إيجاد تغيير في تركيب كامل النظام[16]. فعلى سبيل المثال: إنتروبيا نظام كالحطام الذي يتبقى من عمارة مهدّمة كبيرٌ جدًا؛ لأن نقل الأقسام المختلفة للحطام، على غرار النظام المنظور يحافظ على هويته التي هي عبارة عن الحطام. أما إنتروبيا نظام مثل بناء جميل - كمسجد الشيخ لطف الله في أصفهان، أو أي تحفة فنية أخرى كمنمنمات رضا عباسي التي هي منمنمات إيرانية بارزة في العهد الصفوي - فهو ضعيف جدًا. النظم بين أجزاء هذا النوع من الأنظمة السابقة التي يؤدي التصرف في تركيب أجزائها إلى زوال جمال التحفة وتغيير هدف النظام. الأنظمة التي لها إنتروبيا قليلة جدًا ودرجة عالية من النظم، هي أنظمة تتمتع بعمق منطقي كبير.

وبالاستفادة من البحث السابق يمكن طرح هذا التخمين، وهو أن القرآن عبارة عن نظام معقد يتمتع بعمق منطقي كبير جدًا. ويمتلك هذا النظام تنظيمًا عاليًا جدًا، ويشتمل على محتوى معلوماتي غني استثنائي. وقد اقترح بعض العقلانيين النقديين هذا التخمين: وهو أن القرآن « كتاب مفتوح» يشبه ويكمل «كتاب الكون»: فكلا الكتابين بناءً على نظرة المسلمين يشتملان على آيات قدّمها مالك العالم من أجل إرشاد بني آدم. وكلا الكتابين - كما مر - يعتبران ذوَي معلومات مكملة بعضها بعضًا، وإنْ كانا يشتملان على بعض الأبعاد المشتركة وبعض الاختلافات الأساسية أيضًا. ولعل أهم اختلاف بين هذين الكتابين - بصرف النظر عن أن « آيات» أحدهما تبين في قالب رموز مكتوبة أو مصوتة والأخرى في هيئة هياكل متشكلة من أجزاء مادية - هو أن كتاب القرآن يشتمل على معلومات توصيفية وعلى معلومات مفروضة، عكس كتاب الطبيعة. أما من حيث الشباهة بين الكتابين، فيمكن الإشارة إلى هذه المسألة، وهي أن كليهما يعرضان نظامين يمكن وصفهما في قالب بيانات يمكن اختزالها على نحو ألوغاريتمي. وعلاوة على هذا، على الرغم من أنه لا يُرى هناك أبعاد فوضوية في القرآن على الظاهر، إلا أن كلا نظامي القرآن والكون يتضمنان أبعادًا تفوق الفهم الزماني، ولا يُظهران نموذجًا منظمًا خاصًا.

ثالثًا: ما الذي يمكن تعلمه من القرآن؟ وكيف؟

إذا كان القرآن على غرار الكون، مثلما مر، كتابًا مفتوحًا مليئًا بالآيات والعلامات والبيانات التي تشير إلى واقع وراء الظواهر، فإن ادعاء هذه المقالة التي بين أيدينا هو أن أفضل سبيل للاستفادة من القرآن هو تطبيق منهج عرض التخمينات والتقييم النقدي لأخطائها ونقائصها (في المحور الأول). فالخطوة الأولى في التطبيق الناجح لهذا المنهج، مثلما وضحنا على نحو كبير سابقًا، هي عبارة عن امتلاك مسألة أو مشكلة تعكس لنا الواقع أمامنا وتستدعي طريقًا لحلها. والخطوة اللاحقة هي عبارة عن إنتاج تخمين باعتباره طريقة حل مؤقتة للمسألة أو المشكلة المبحوثة. والخطوة الثالثة ناظرة إلى التقييم النقدي لطريق الحل المقترح بنيّة تبيين أبعاد ضعفه وقوته.

ومدعى المقالة الحالية هو أن القرآن يمكن أنْ يسهم ويساعد على الصُعد الثلاثة السابقة. فهذا الكتاب يمكن أن يقترح «مسائل» جديدة وأصيلة للشخص؛ ويمكن أن يعينه في جهده للحصول على طريق حل للمشاكل التي تطرحها

15 - Davies, *The Mind of God,* p. 137.

16 - Kate Becker, "Is Information Fundamental?" *PBS,* 26/4/2014, accessed on 29/11/2014, *at:* http://to.pbs.org/3sj68G5

الواقعية أمامه، ويمكنه أخيرًا أنْ يكون بمنزلة حكم ومقيّم نقدي، يقيّم طرق حلول الشخص المقترحة. لكن كل واحد من الموارد الثلاثة السابقة في حاجة إلى توضيح أكثر، ولكل واحد منها استلزامات أكثر خفاءً.

إن القرآن باعتباره مصدرًا للمعرفة، نظير الطبيعة، لا يعرض طرق حل مباشِرةً وصريحةً للمسائل التي نواجهها. فطرق الحل، والنظريات، والتخمينات ونظير ذلك يجب علينا صياغتها بأنفسنا. فالقرآن، باعتباره قسمًا من الواقعية بالمعنى الواسع لهذا المفهوم، هو بمثابة قاضٍ لادعاءاتنا المعرفية التي تكون قد اقتُرحت في قالب طرق حل للمسائل والأزمات مثلًا، ويمكنه أن يساعد في إيجاد نقائص هذا النوع من الادعاءات. وتجدر الإشارة إلى مسألة مهمة هنا لرفع أي سوء للفهم.

لقد تمت الإشارة كثيرًا إلى أنه على الرغم من اعتقاد المؤمنين بأن كتابَي القرآن والطبيعة يمتلكان معلومات أدرجها كاتب واحد فيهما، فإن محتوى هذه المعلومات ليس واحدًا حرفيًا، بل مكملٌ بعضها بعضًا. ومن بين اختلافات هذين الكتابين هنالك مورد جدير بالاهتمام؛ ففي حين أن كتاب الطبيعة يجعل بين أيدينا معلومات حول عالم الطبيعة والواقعية المختفية وراء الظواهر المادية، فإن القرآن يقدم لنا معلومات ناظرةً، أساسًا وليس انحصارًا، إلى المجال الذي يمكن تحديده تحت عنوان عام هو «الشروط أو الأوضاع أو الحالات الإنسانية» (The Human Condition). وبعبارة أخرى، فإن القرآن لا ينافس كتاب الطبيعة في المعلومات التي يعرضها كل واحد منهما، بل مثلما تأكَّد، فإن المعلومات المندرجة في الكتابين مكملٌ بعضها بعضًا. فكل واحد منهما يعرض في الأساس معلومات لا توجد عند الآخر. فعلى سبيل المثال: مثلما لا يمكن استنباط معلومات متعلقة بطريقة السلوك الاجتماعي والفردي وطرق السلوك الأخلاقي من الطبيعة، وكل تأكيد ومحاولة في هذا المجال تنجرّ إلى ارتكاب «مغالطة طبيعية» (Naturalistic Fallacy)؛ فكذلك كل محاولة وتأكيد على استنباط معلومات مرتبطة بنحو تطوير ميكانيك الكوانتوم أو نظام الجبر الهومولوجي أو الهندسة التوبولجية وأمثال ذلك من القرآن سينتهي إلى ارتكاب مغالطة «خلط المقولة» (Category Mistake). ومن بين الاختلافات الواضحة للكتابين - كما تمت الإشارة إليه سابقًا - هو أنه لا يجب في كتاب الطبيعة أي نوع من الأمور الإنشائية، في حين أن الإنشاءات موجودة في القرآن.

ويبدو أن المقاربة التي تقترح في هذه المقالة من أجل تطور المعرفة - أي مقاربة العقلانية النقدية - قد استُفيد منها في القرآن نفسه. فالآيات التالية من سورة الأنعام تقوي بوضوح هذه المسألة التي أشير إليها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [سورة الأنعام: 75–79].

ومثلما بينت الآيات، فإن إبراهيم في جهوده من أجل نيل معرفة بمالك الوجود قد اصطنع سلسلة تخمينات[17]، ومن خلال التقييم النقدي لكل واحد منها والتعلم من الأخطاء المعرفية لكل واحد من التخمينات الأولية، فإنه زادت معلوماته حول الخالق ورب العالم وحافظه وفق المنهج السلبي، وفي كل خطوة سعى إلى عرض تخمين أفضل من التخمين الذي سبقه. وفي الختام، فإن المعرفة المتراكمة قد أرشدته إلى تخمين أكثر جامعيةً وعلمٍ أكثر تفصيلًا. فإدراك الموجود المتسامي من خلال البحث، لا يمكن أن يكون من سنخ ظواهر «المغرب للشمس» مما يوجد في عالم الطبيعة، وبتتبع هذه الملاحظة والانتباه المعرفي، فقد أعلن على نحو نهائي وتام أن الله الذي يُسلّم ويُخضَع له هو خالق السماوات والأرض، وهو الوحيد الذي يستحق العبادة.

17 - طبقًا لبعض التفاسير، فإن ما قام به إبراهيم هو من أجل تنبيه المشركين وليس من أجل أن يؤمن هو نفسه بالله (انظر **تفسير الميزان على سبيل المثال**). **وهذه النظرة، لا تؤثر في المسألة المنظورة في النص، أي استفادة القرآن من منهجية إنتاج التخمين والسعي من أجل إيضاح نقائصه.**

وليس القرآن معلم معارف علمية أو رياضية أو منطقية. لكن هذا الكتاب يمكن أنْ يلهم الأفكار للأفراد في الجهود العلمية (بالمعنى العام لهذا الاصطلاح، تشمل العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية والتعاليم الرياضية أيضًا). إلا أن الإلهام هو غير التعليم المباشر. فمن خلال هذا الكتاب، مثلما سبق، يمكن الاستفادة منه باعتباره حاكمًا نقديًا للادعاءات المعرفية المرتبطة بالمجال العام (الشروط والوضع والأحوال الإنسانية)، أو باعتباره «معينًا في الكشف» (Heuristic Insight) ومساعدًا في كشف وإدراك «استلهام» التخمينات الناظرة إلى طرق حل المسائل المرتبطة بشروط الأحوال الإنسانية وأوضاعها. وإن كان في بعض الأحيان يمكن الوصول إلى مسائل ونطاقات أعمّ للأذهان الوقّادة التي تتمتع بمعارف قبلية غنية ولها القدرة على البحث في المسائل المستحدثة في نطاقات أخرى عبر الأنس مع هذا الكتاب.

ومن جملة المسائل المرتبطة بمجال «شروط الأحوال الإنسانية وأوضاعها» يمكن الإشارة إلى المورد التالي: «ما الحياة الطيبة؟»، «ما حقوق كل فرد إنساني في مملكة الوجود؟ وما مسؤولياته؟»، «هل أن القيم العامة والأسس الأخلاقية الشاملة التي يقبلها البشر توجد في كل الأزمنة والأمكنة؟»، «وأي التدابير وكيف يمكنها الحد من الآلام البشرية؟»، «ما أفضل منهج لاحتواء السلطة السياسية والانتفاع الأقصى منها؟»، «من بين قيمتي العدالة والحرية، لمن الأولوية فيهما؟» يمكن التوسع في فهرسة هذا النمط من المسائل وإدراج الكثير جدًا من المسائل المرتبطة بأوضاع الأحوال الإنسانية.

افرضوا الآن فيما يرتبط بالأمثلة التي ذكرت أو أي مسألة أخرى ناظرة إلى المجال العام للأوضاع والأحوال الإنسانية، أننا نصل إلى طريقة حل تخمينية. ففي إمكان القرآن هنا أن يكون بمنزلة مصدر لنقد طرق الحل المقترحة. ومن أجل هذه الغاية يجب أنْ ندخل في حوار نقدي مع القرآن. افرضوا في نهاية عملية الحوار النقدي هذه أنه من خلال القرآن كان استنباطنا كالتالي، وهو أن القرآن ينقد طريقة حلنا المقترحة. في هذه الحالة، مثلما تمت الإشارة إليه كثيرًا (المحور الأول)، نكون قد تعلمنا أيضًا عبره شيئًا جديدًا، وإن كان هذا التعلم على نحو سلبي.

إن هذه المسألة - وهي تحقيقنا التخميني لطريقة حل حول المسائل المرتبطة بالمجال العام للعلوم الإنسانية والاجتماعية - ناظرة إلى أن هذه الرؤية القائلة بعدم وجود أي نظرية في القرآن، ولا يمكن، ولا يجب أن نتوقع من القرآن أن يشتمل على نظرية خاصة في مجال خاص. والنظريات – مثلما أوضحنا سابقًا – تصاغ بواسطتنا، من أجل الإجابة عن الأزمات والمشاكل التي تطرحها الواقعية أمامنا. ونحن نُسقط هذه النظريات على الواقعية، بما فيها الواقعية الطبيعية أو الواقعية المتكونة اجتماعيًا (بما في ذلك النصوص) بهذا الغرض، وهو أن ننال إدراكًا حقيقيًا لها. والواقعية – مثلما مر – تعمل بمنزلة حَكم للادعاءات المعرفية.

والملاحظة التي ذُكرت سابقًا حول عدم وجود أي نظرية في القرآن في حاجة إلى توضيح، حتى لا يقع سوء الفهم. ويبيّن هذا الكلام رؤية أولئك الذين يعتقدون حرفيًا أن القرآن هو كلام الله. إن النظريات والتخمينات – مثلما توضَّح كثيرًا – هي نتاج فكر وتجارب حية لموجودات غير معصومة، ولديها استعدادات محدودة وناقصة. والموجود الناقص لا يمكنه إنتاج منتوج كامل بلا نقص. والتخمينات والنظريات البشرية هي بهذا الاعتبار ذات نقص وخلل، لأنه لا يمكنها الإحاطة بكل الواقعية. ولهذا، فمن أجل تطور المعرفة لا بد من السعي بجدية من أجل الكشف عن أخطاء التخمينات المقترحة عن طريق التقييم النقدي. أما الله فهو موجود بلا نقص أو خلل، وكل الواقعيات مخلوقاته، ومعرفته للواقع ليست تخمينية وناقصة. فالقضايا التي توجد في القرآن ليست تخمينات ناقصة لأنها صادرة – بناء على الفرض – من موجود متعالٍ هو الكمال المطلق وخالق كل شيء.

أما من منظور أولئك الذين يعتقدون أن القرآن ليس كلام الله (سواء المسلمين الذين يعتقدون أن القرآن هو نتاج التجارب الوحيانية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ونتيجة إعادة صياغة تلك التجارب في قالب اللغة والمفاهيم التي كانت في متناوله، أو أولئك الذين يرون أن القرآن من صياغة محمد جملةً وتفصيلًا ولا يعتقدون أنه نبي)، فالقضايا التي جاءت في القرآن، جميعها يمكن أنْ تتلقى على أنها نظريات إنسانية قيلت من أجل اصطياد الواقعية في قالب اللغة والمفاهيم.

والمسألة المهمة عند الفريقين - أي أولئك الذين يعتبرون القرآن كلام الله وأولئك الذين لا يعتبرونه كذلك - هي أن

الوصول المباشر إلى محتوى القرآن أمر غير ممكن، مثلما أن الوصول المباشر إلى الواقعية غير ممكن كذلك. وكلا الفريقين مجبور، من أجل إدراك الحقائق المكنونة في القرآن، أن يستعين بصياغة النظريات والتخمينات. وهذا الكلام يصدق طبعًا حول أي نص مدون آخر. وسبب هذه المسألة – كما أشير إليه سابقًا – هو أن مشاهدات الأفراد وتجاربهم كافة (سواء في مواجهة الطبيعة أو في مواجهة النصوص) مختزلة في النظريات وما قبلها. هذه النظريات والتخمينات، بما أنها صناعة بشرية، فهي دائمًا مشوبة بالنقص والخلل وفي حاجة إلى ترقٍ وتكامل. وبهذا الاعتبار، فإن المجال مفتوح للإدراك الأفضل للموضوعات المبحوثة. وكلما كان مقدار «العمق المنطقي» للموضوع المبحوث أعمق، كان مجال المعارف الجديدة حوله أوسع. وبالنسبة إلى القرآن، فإن العمق العجيب الذي يتميز به هو كون مجال المعارف الجديدة مفتوحًا فيه إلى يوم القيامة.

وفي كل زمان، يمكن البشرية، بالاستناد إلى أفضل المعارف والإمكانات وأغنى التجارب الحية، صياغة تخمينات خالية من نقائص التخمينات والمعارف السابقة، ولكن بما أن التخمينات الجديدة هي من صناعة موجودات ناقصة وغير معصومة، فإنها ليست عاريةً عن نقائص جديدة. والسعي من أجل توضيح وتدارك هذه النقائص الجديدة يمهد الطريق لتطور المعرفة حول محتوى هذا الكتاب بصورة أكبر. فالتخمينات الجديدة هي حصيلة جهود بشرية في مجالات علمية مختلفة؛ فالعلوم الاجتماعية والإنسانية هي من أجل عرض تخمينات للأوضاع والحالات الإنسانية، والعلوم الحية والطبيعية هي من أجل تخمينات لمعرفة الطبيعة. ومن الضروري التأكيد على هذه المسألة، وهي أن القرآن لا يمكن أن يكون بأي وجه من الوجوه بديلًا من الجهود البشرية، من أجل فهم الواقعية التي تتجلى في قالب علوم وتخصصات علمية مختلفة مستنبطة من العلوم الطبيعية والحية والعلوم الاجتماعية والإنسانية، وفي كل لحظة يجب التوسع بالطريقة نفسها التي تم توضيحها في المحور الأول. والقرآن باعتباره منبعًا غنيًا بمعلومات حول الواقعية، هو على غرار الطبيعة - مثلما أشير إليه - يمكنه أن يساعد في تطور المعرفة البشرية وفق ثلاث طرق، إحداها نقد التخمينات المرتبطة في الأساس بالأوضاع والحالات الإنسانية.

فعلى سبيل المثال: افرضوا «مسألة» معينة يتعامل الفرد معًا هي: ما وظيفته تجاه والده ووالدته العجوزين؟ افرضوا أن للشخص زوجة ولديهما ولد ويعيشان بصعوبة في مدينة كبيرة، منازلها وبيوتها صغيرة المساحة، كما أن تكاليف الحياة فيها مرتفعة جدًا، في حين أنه وزوجته مجبران على العمل من أجل إدامة حياتهم. أولادهما يذهبون إلى المدرسة، والمرأة وزوجها لا يتمتعان بشبكة الدعم الأسرية الواسعة التي يمكنها أن تتحمل بعض الأثقال عنهما. افرضوا أنه بعد التعايش أوقاتًا مديدة مع هذه المسألة، فإن الشخص يصل إلى نتيجة أنه وفقًا لإمكانياته وظروفه فإن أفضل طريق للحل هو أن يترك والديه لحالهما سواء في منزلهما أو في دار العجزة، وكذلك أنْ يوفر لهما شطرًا من مصاريف حياتهما بالقدر الذي يمكنه.

وعليه فبمجرد خطور طريقة تخمينية في ذهن الشخص، يجب عليه أن ينقل طريقة الحل إلى «مجال وصعيد التقييم والحكم» وهنالك يتم التحقق من الصورة المستحدثة لطريقة الحل على نحو نقدي. وفي هذا المجال والصعيد، تتضح طريقة الحل المقترحة بطريقة عينية. وهنا، وبالالتفات إلى أن المسألة وطرق حلها ترتبط بالمجال العام «للأوضاع والحالات الإنسانية»، فإن الشخص يمكنه أن يستفيد من القرآن من أجل التقييم النقدي لنقاط قوة طرق الحل المقترحة وضعفها. حاليًا، لو أنه بعد البحث الدقيق لرؤية القرآن (بمستوى إمكانية الشخص) يستنتج أن القرآن لا يوافق على رؤيته، ففي هذه الحالة يجب عليه من خلال التعلم من نقاط الضعف التي تم تلقيها في الدراسة النقدية لطرق الحل المستفادة من القرآن، أن يسعى لتقديم طرق حل أفضل تكون فاقدةً لنقاط الضعف الحالية. لكن على العكس من ذلك، لو يستنتج بعد الدراسة الدقيقة والصريحة والنقدية أن القرآن لا يخالف نظريته مخالفةً واضحة، عندئذ يمكنه مؤقتًا (وإلى حين الحصول على طريقة حل أفضل) أن يأخذ في الاعتبار طريقة الحل المقترحة باعتبارها تخمينًا يقع في طريق الصواب (أي النظرة النهائية تكون للقرآن) ويعمل على أساسها.

وهناك مسألة تحظى بالأهمية، وهي بهدف الانتفاع من قدرات القرآن باعتباره حَكَمًا نقديًا لادعاءاتنا المعرفية في مجال الأوضاع والحالات الإنسانية، وهذه الادعاءات والتخمينات لا يجب أنْ تكون بصورة متبلورة بحيث يمكن ببساطة

الحصول على «بينة مؤيدة» (Confirming Evidence) لها من القرآن. فالبينات المؤيدة لا تعلمنا شيئًا. والنقد إنما يكون معلمًا ومفيدًا إذا استُخدم بهدف إبراز نقائص نظراتنا ودحضها. لكنه وفي ختام دراسة شاملة وصارمة لم يتم دحض وإبطال هذه البينات، فحينئذ فقط (وعلى نحو مؤقت) يمكن استنتاج أن الادعاءات المعرفية أو التخمينات المقترحة قد وقعت مورد تعزيز وتدعيم من قِبل القرآن. وسوف نتطرق مرة أخرى إلى هذه المسألة فيما يأتي من هذا البحث.

والطريقة الثانية التي يمكن للقرآن أن يساعدنا بها في جهودنا المعرفية هي أن يؤدي دوره باعتباره منبعًا ملهمًا لطرق الحل وسبل الوصول إلى التخمينات التي نحتاجها للمسائل والمشاكل التي تشغلنا. وفي هذا المجال، التعرف العميق والارتباط المستمر للفرد مع القرآن واحتكاكه المستمر والمنظم مع المسألة أو المسائل المنظور، ويمكن أن ينجرّ إلى ظهور رؤى أو مشاهدات أو إلهامات في العالم 2 للفرد فيما يرتبط بطرق حل المسائل المنظورة. لكن مثلما تبيّن سابقًا، فإن هذا النمط من ومضات الرؤى والإلهام والشهود، التي هي حصيلة التجارب الحية والوجودية، يجب أن تخضع للدراسة النقدية بالاستعانة بالذاكرة واللغة والمفاهيم المَصوغة وفي «مجال التقييم والحكم».

وهنا مسألة يجب التأكيد عليها وهي أنه لا توجد معلومة أو ألوغاريتم أو تفكير منطقي أو ميكانيكي يمكن الاستفادة منه في طيّ خطوات محدودة من المسألة للوصول إلى طريقة حلها. وهذه مسألة تصدق في المسائل التي تتعلق بالوضع والحالات الإنسانية، وفي المسائل المرتبطة بعالم الطبيعة كذلك. طرق الحل يمكن أن تنكشف (إذا كانت الشروط التي سيشار إليها لاحقًا متحققةً) بصورة بريق مشرق، أو شرارة إلهام، أو نور شهود في قالب تجربة وجودية وحية وفي العالم 2 للفرد. والشرط اللازم (إلا أنه غير كافٍ) لظهور طرق الحل هو على ذلك المنوال. فأولًا يجب أن يتعامل الشخص بصورة منتظمة ومستمرة مع المسألة المنظورة، وترك الأمر للحظ لتأدية دور في حل المسألة لا يساهم كثيرًا في إيجاد طريقة حل[18].

إن الشرط الثاني اللازم - إلا أنه ليس كافيًا- لظهور التخمين والحدس في العالم 2 للفرد باعتباره جوابًا للأزمة والمشكلة التي يكون الفرد في سعي لإيجاد طريقة حل لها هو عبارة عن امتلاك أرضية معرفية مناسبة، ومتناسبة مع الأزمة والمشكلة المنظورتين. فمن لم يكن له اطلاع كبير حول المسألة التي يريد أن يجد حلًا لها، فليس له فرصة كبيرة في إيجاد طريقة حل مناسبة لها. والشرط الضروري الثالث هو عبارة عن حضور من يروم حل المسألة ووجوده في محيط ونظام بيئيين ثقافيين ومعرفيين مناسبين وغنيين ومتناسبين مع المسألة المنظورة. ويجب إضافة عامل الحظ والتوفيق المناسب (أو لطف الحق) إلى مجموعة الشروط السابقة أيضًا. فلو جمعت العوامل السابقة كافة إلى جانب بعضها البعض، فإن طريق الحل قد يظهر (وليس بالضرورة) في قالب وميض بصيرة، أو شرارة إلهام، أو لمعان شهود وأمثال ذلك في العالم 2 للفرد.

والمثال التالي، يبين بصورة أفضل واحدةً من بين آلاف الصعوبات في إيجاد طريقة حل مناسبة للمسائل. وقد طرح بيير فرما Pierre de Fermat (1601-1665) عالم الرياضيات الفرنسي سلسلةً من المسائل الرياضية المهمة باعتبارها أزمات بالنسبة إلى علماء الرياضيات في القرن السابع عشر. وآخرها مسألته التي طرحها سنة 1637 وبقيت من دون حل حتى أواخر زمان حياته[19].

وقد مرت 358 سنةً حتى اجتمعت العوامل الأربعة المشار إليها (والعوامل التي لم يُشَر إليها) وعرضت طريقة الحل المطلوبة. وفي سنة 1994 أدرك أندرو وايلز (Andrew Wiles) عالم الرياضيات الإنجليزي حينما كان يشتغل على فئة من المسائل الرياضية الموسومة بـ «المنحنيات البيضوية شبه المستقرة» (Semi-stable elliptic curves) أن طريقة حل تلك المسائل يمكن أن تقدم طريقةَ حل كذلك لآخر قضية من قضايا فرما[20].

18 - هذه المسألة تحتاج إلى توضيح لأنها قد تبعث إلى سوء الفهم، إذ إن أحد التعليمات التي توجه إلى المحققين الذي يجتهدون في حل المسائل هو أنه إذا واجهوا مسألة صعبة جدًا فمن المناسب لهم بعد مدة من التعامل معها وبهدف إراحة الذهن أن يضعوها جانبًا مدة غير طويلة ويشغلون ذهنهم بأمور أخرى، ثم يعودون إلى المسألة بعد ذلك. وخلال هذه المدة، فإن البعد اللاشعوري للذهن ينتهز الفرص لتهيئة نفسه من أجل التعامل على نحو مؤثر مع المسألة.

19 - Simon Singh, *Fermat's Last Theorem (London: Fourth Estate, 2002).*

20 - Ibid.

وحتى ينتفع الشخص من إلهام قرآني فيما يرتبط بالمسألة التي يسعى من أجل العثور على حل لها (على نحو إمكاني وليس ضروريًا، كما تقدم توضيحه)، فإن الشرط اللازم (وليس الكافي) له هو التعمق في المجالات الحيوية لفكر القرآن والاستئناس به إلى درجة أن كل مرة يُتلى فيه القرآن وكأن آياته نزلت عليه لأول مرة.

وبغضّ النظر عن الطريقتين اللتين تم توضيحهما سابقًا فيما يرتبط بكيفية مساعدة القرآن للشخص في جهوده المعرفية، فإن هناك جانبًا ثالثًا أيضًا يكون القرآن فيه عاملًا مساعدًا للشخص من أجل توسيع علمه. وهذه الوظيفة الثالثة للقرآن ناظرة إلى عرض المسائل الجديرة بالاهتمام لتلك المجموعة من الأذهان المستعدة والباحثة التي، علاوة على التمتع بالمعارف القبلية الغنية ومقاربة المسألة المحورية، فإنها تألف وتستأنس بالقرآن. وفي هذا الموضع كذلك، على غرار مورد مواجهة عالم الطبيعة، فإن الأذهان المستعدة والباحثة تقع أكثر من غيرها في مظان ذلك، بحيث تكتشف الإشارات القرآنية في المسائل الجديرة بالاهتمام في مجال «الأوضاع والحالات الإنسانية». ويمكن ذكر نماذج متعددة في هذا المجال باعتبارها شاهدَ مثال على ذلك. على سبيل المثال فإن السؤال عن «ماهية الوحي؟» هو موضع اهتمام عدد كبير من المحققين المسلمين، سواء في القرون الأولى أو في القرون الأخيرة[21].

والمثال الآخر هو هذا التساؤل: «ما عدد المفردات غير العربية التي وردت في القرآن ولماذ وردت؟»[22] ومن بين الأسئلة الأخرى يمكن الإشارة إلى هذه النماذج: «كيف ستكون الحياة بعد الموت؟»، «ما الروح؟»، «هل تفارق الروح البدن عند النوم؟»... إلخ.

ويمكن ذكر نماذج وأمثلة كثيرة من الموارد للطرق الثلاث المقترحة التي يمكن أنْ تساعد المحققين المسلمين في تحقيقاتهم، فمثلًا لو أن محققًا شغوفًا بالقضايا المرتبطة بحقوق البشر ويبحث في ذلك المجال، ويختار موضوع حقوق المرأة في الإسلام باعتباره مسألة بحثه، فيختار هذا المحقق في الخطوة الأولى هذا التخمين وهو أن الإسلام قد جعل للنساء والرجال حقوقًا متساوية[23]، يواجه هذا المحقق حين دراسة القرآن جملةً من الآيات التي يجري الحديث فيها عن مفهوم «ملك اليمين». وقد تنتهي دراسته لآراء المفسرين القدماء حول هذه الآيات إلى هذه النتيجة وهي أن تخمينه الأول لم يكن صحيحًا، وأن الاسلام يعترف رسميًا باسترقاق النساء اللاتي كنّ يؤسرن في الحروب، وأنه لم يجعل لهن حقوقًا مساويةً، بل حتى لحقوق غيرهن من النساء الأحرار. غير أن تعمق هذا المحقق في بقية آيات القرآن ومن خلال الاستفادة من مقاربات وآليات جديدة في مجال حقوق الإنسان والفلسفة السياسية وتتبع طرق تفسير جديدة تجعله يكتشف هذه المسألة وهي أن مفسري الفترة القديمة كانوا يعيشون في بيئة وثقافة استعباد شديد؛ ولهذا فإن تفسيراتهم يمكن أن تكون قد تأثرت بثقافة الاستعباد أكثر من تأثرها بروح التعليمات القرآنية. كما أنه حين دراسته القرآن من خلال ما يحمله من أفكار، يدرك أن فكرة الحقوق غير المتساوية بين الرجل والمرأة تتعارض مع الكثير من آيات القرآن ومع روح رسالته بمعنى آخر. وأثناء سيره التحقيقي، يتعرف إلى آراء محققين يدعمون تخمينه الجديد من خلال آثارهم[24]. وبهذا ينتفع المحقق من دراسة القرآن من خلال الاستفادة من مقاربة العقلانية النقدية وفق الطرق الثلاث المشار إليها.

---

21 - نصر حامد أبو زيد، **مفهوم النص: دراسات فى علوم القرآن** (الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافى العربى، 1990)؛ عبد الكريم سروش، «محمد: راوي الأحلام النبوية»، راه سبز (2013)، شوهد في 2014/4/10، في: https://bit.ly/3bHQVbB؛

Nasr Hamed Abu Zayd, "The Qur'an: God and Man in Communication," Universiteit Leiden (2000), accessed on 10/1/2020, at: https://bit.ly/3oPdX4g

22 - Arthur Jeffery, *The Foreign Vocabulary in the Quran* (Leiden: Brill, 2007); *Christoph Luxenberg, The Syro-Aramic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Koran* (Berlin: Verlag Hans Schiler, 2007).

23 - هذا المثال يمكن توسعته بعينه على مبنى هذا الفرض أيضًا، وذلك أن التخمين المحقق قائم على إعطاء حقوق غير متساوية للمرأة في الإسلام.

24 - بعنوان نموذج لهذه المسألة يمكن الرجوع إلى:

Nehad Khanfar, "A Critical Examination of the Legal Position of 'Mulk Al-Yameen' in Islamic Family law, the Law of War and Slavery: Quranic Perspective," The paper is under consideration to be published in *Electronic Journal of Islamic and Middle Eastern Law (EJIMEL).*

أود أن أشكر زميلي د. نهاد خنفر لتزويده إيايّ بمسودة من ورقته.

رابعًا: القرآن وبحث المعنى

إن مطالعةً - ولو لم تكن عميقة - للقرآن تطرح على الشخص هذا التخمين، وهو أن أهم خطاب يوجهه هذا الكتاب إلى الإنسان هو ما تمّت الإشارة إليه في المقام الآخر، أي هذه المسألة وهي أن «الوجود له مالك». وهذا الخطاب طبعًا مثلما مر يمتلك قدرة استيعاب معنائيةً واسعةً جدًا. والبحث حول المعنى ومكانته في القرآن هو بحث له نطاق واسع، إلا أن غرض المقالة الحالية ليس العناية التفصيلية بهذا الموضوع. لكن تجدر الإشارة في هذا المقام إلى هذه المسألة الضرورية، وهي أن رؤية العقلانيين النقدية للمعنى على عكس تلك المجموعة من أتباع المعنى والتأويليين الذين يعتبرون المعنى المفهومَ الأساسي، ويرون أن أبحاث المعنى هي الهدف الأساسي، بل هي على رأس أهداف الدراسات الهرمينوطيقية.

في رؤية الكثير من الهرمينوطيقيين والفلاسفة الذين يضيقون دائرة الواقعية إلى حدود اللغة وينظرون إلى الواقعية باعتبارها نصًا مماثلًا، فإن المعنى ليس له علاقة بالواقعية الخارجية للنص، كما أن الحديث عن الصدق يستبدل بأمر داخل النظام. فالصدق هو الصدق التلاؤمي والانسجامي وليس التطابقي.

وفي رؤية العقلانيين النقديين، فإن المعنى (في مجال البحوث المعرفية)، كما تمت مناقشته سابقًا، مهم فقط إلى الحد الذي يدل على صورة أكثر أحقيةً للواقعية الخارجية من خلال اللغة. ويؤكد العقلانيون النقديون أن «المعاني المصطنعة» يجب إخضاعها باستمرار لمحك الواقع، وبمساعدة الواقع، يجب على المرء أن يتجنب الانبهار باللغة والمعاني المصطنعة.

خامسًا: المقارنة بين منهج الاستنطاق المنسوب إلى علي بن بى طالب (عليه السلام) ومقاربة العقلانيين النقدية

ينبه الإمام علي (عليه السلام) في الخطبة 157 من نهج البلاغة، وذلك في إشارته إلى القرآن: «ذلك القرآن فاستنطقوه ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه: ألا إن فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم».

يطلق أصحاب الدراسات القرآنية علة ما ذكره الإمام علي تحت عنوان منهج «استنطاق القرآن». ولعل من الأسماء اللامعة في الدراسات القرآنية من بين المحققين المسلمين المعاصرين الشهيد آية الله محمد باقر الصدر إذ أشار إلى هذا المنهج، وأعلن أنه المنهج الذي اختاره في دراسة القرآن[25]. ويوضح آية الله الصدر ذلك بقوله: لعله على مدى ثلاثة عشر قرنًا، فإن المنهج الحاكم على التفسير كان هو المنهج التجزيئي المعروف، وكل مفسر كغيره من المفسرين السابقين يرى نفسه ملزمًا بأن يفسر القرآن آيةً بآية[26].

يُطلق على تفسير القرآن آيةً بآية وعلى أساس توالي السور اسم التفسير الترتيبي. وقد ابتكر عدد من المسلمين في القرن العشرين منهجًا جديدًا لدراسة القرآن أطلق عليه اسم التفسير الموضوعي. والشهيد الصدر هو من بين أصحاب الدراسات القرآنية الذين استخدموا هذا المنهج. وقد دوّن حول هذا المنهج ما يلي: على خلاف المنهج الترتيبي، فإن المفسر الموضوعي لا يبدأ عمله من النص، بل من واقع الحياة يركز نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدّمه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني لا ليتخذ من نفسه بالنسبة إلى النص دور المستمع والمسجل فحسب، بل ليطرح بين يدي النص موضوعًا جاهزًا مشربًا بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية، ويبدأ مع النص القرآني حوار سؤال وجواب، المفسر يسأل والقرآن يجيب [...] ومن هنا أيضًا كانت عملية التفسير

25 - محمد باقر الصدر، **المدرسة القرآنية** (بيروت: دار الكتب الإسلامية، 1424ه)؛ على أصغر يساق وسيد محمد على أيازى، «تحليل مبادئ ونهج الشهيد الصدر في تفسير القرآن»، العدد الخاص في الفقه وتاريخ الحضارة، مج. 6، العدد 25 (2010)، ص 196-217.

26 - الصدر، ص 90؛ يساقي وأيازى، ص 198.

الموضوعي عملية حوار مع القرآن الكريم واستنطاق له، وليست مجرد استجابة سلبية، بل هى استجابة فعالة وتوظيف هادف للنص القرآني في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى[27].

ولعل أحد أهم جوانب التوجه إلى القرآن عند الشهيد الصدر هو التعبير بالاستنطاق الذي جاء في كلام الإمام علي، وهو أروع تعبير عن عملية التفسير الموضوعي بوصفها حوارًا مع القرآن الكريم، وقد سمى منهجه في التفسير المنهج الاستنطاقي، فيقول: «أول أوجه الاختلاف الرئيسية بين الاتجاه التجزيئي في التفسير والاتجاه الموضوعي في التفسير أن الاتجاه التجزيئي يكون دور المفسر فيه دورًا سلبيًا يستمع ويسجل، بينما التفسير الموضوعي ليس هذا معناه، وليس هذا كنهه، وإنما وظيفة التفسير الموضوعي دائمًا في كل مرحلة وفي كل عصر أن يحمل كل تراث البشرية الذي عاشه، يحمل أفكار عصره، يحمل المقولات التي تعلّمها في تجربته البشرية، ثم يضعها بين يدي القرآن، الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ليحكم على هذه الحصيلة بما يمكن لهذا المفسر أن يفهمه وأن يستشفه وأن يتبيّنه من خلال مجموعة آياته الشريفة. إذًا، فهنا يلتحم القرآن مع الواقع، يلتحم القرآن مع الحياة؛ لأن التفسير يبدأ من الواقع وينتهي إلى القرآن، لا أنه يبدأ من القرآن وينتهي بالقرآن، فتكون عمليةً منعزلةً عن الواقع، منفصلةً عن تراث التجربة البشرية، بل هذه العملية تبدأ من الواقع وتنتهي بالقرآن بوصفه القيّم والمصدر الذي يحدد في ضوئه الاتجاهات الربانية بالنسبة إلى ذلك الواقع».

إن المفسر التجزيئي دوره فى التفسير على الأغلب سلبي، فهو يبدأ أولًا بتناول النص القرآني المحدد آيةً مثلًا أو مقطعًا قرآنيًا من دون أي افتراضات أو طروحات مسبقة، ويحاول أن يحدد المدلول القرآني في ضوء ما يسعفه به اللفظ مع ما يتاح له من القرائن المتصلة والمنفصلة. العملية في طابعها العام، عملية تفسير نص معين، وكأن دور النص فيها دور المتحدث، ودور المفسر هو الإصغاء والتفهم، وهذا ما نسميه الدور السلبي. المفسر هنا شغله أن يستمع، لكن بذهن مضيء، بفكر صافٍ، بروح محيطة بآداب اللغة وأساليبها، وبمثل هذا الفكر يجلس بين يدي القرآن ليستمع؛ فهو ذو دور سلبي والقرآن ذو دور إيجابي، والقرآن يعطي حينئذ، وبقدر ما يفهم هذا المفسر من مدلول اللفظ يسجل في تفسيره[28]. إن الكتّاب الذين يستخدمون منهج الاستنطاق يتفقون بأجمعهم حول هذه المسألة، وهي أن العنصر الأساسي في هذا المنهج هو طرح السؤال على القرآن وطلب الجواب منه. على سبيل المثال وضّح ثلاثة من المحققين في كلية الإلهيات بجامعة طهران في مقالة تحت عنوان «استنطاق القرآن» هذا المنهج بهذه الطريقة: استنطاق القرآن يعني طرح السؤال على القرآن وطلب نطقه وجوابه له. وهذا التعبير، قد طرحه أول مرة الإمام علي (عليه السلام). وقد أطلق علماء الدين عليه عنوان تفسير القرآن بالقرآن، والتأويل، والتفسير الموضوعي، والاستنباط من القرآن، وكل واحد منها يشمل بعدًا من أبعاد الاستنطاق[29].

والبعد الآخر من مقاربة الشهيد الصدر للقرآن ناظر إلى تأكيده أهمية استخراج النظريات المرتبطة بالموضوعات التي يبحث فيها المحقق من داخل القرآن. حيث يقول: «إن التفسير الموضوعي يبدأ عمله حينما تطرح إحدى موضوعات الحياة الاعتقادية أو الاجتماعية والعالمية، ثم تبحث وتدرس من خلال رؤية القرآن إلى أن تنجرّ إلى استخراج واكتشاف نظرية القرآن»[30]. إن نظرةً عابرةً إلى ما تم توضيحه في الأقسام السابقة للمقالة (المحاور 1-4) إضافةً إلى مقاربة الشهيد الصدر وبقية المفسرين الذين استخدموا منهج الاستنطاق (حسب تعبيرهم) واعتبروه منهجًا مستندًا إلى مقاربة الإمام علي (عليه السلام)، تكشف عن محدوديات مقاربة هؤلاء المفسرين. ومدعى المقالة الحالية هو أن منهج الاستنطاق المنسوب إلى الإمام

27 - الصدر، ص 18؛ يساقي وأيازي، ص 200-201.

28 - الصدر، ص 16-17؛ يساقي وأيازي، ص 303.

29 - صفره حسين ومعارف مجيد وپهلوان منصور، «استنطاق قرآن»، **پژوهش هاي قرآن وحديث**، مج. 43، العدد 1 (2010)، ص 138-139، شوهد في 2020/1/10، في: https://bit.ly/39CkFUS

30 - الصدر، ص 15؛ يساقي وإيازي، ص 206.

علي (عليه السلام)، على عكس نظرة المفسرين الذين أطلقوا على منهجهم هذا العنوان، يشبه مقاربة العقلانية النقدية التي تم توضيحها في المحاور 2-4 وليس منهج هؤلاء المفسرين. فمقاربة آية الله الصدر وبقية المفسرين الذين يستخدمون المنهج الموضوعي وطريقة «الاستنطاق» (مثلما وضحوا بأنفسهم) هو عبارة عن طرح السؤال على القرآن وطلب الجواب منه. لكن هذا هو نفسه ذلك البعد الذي كان الإمام علي (عليه السلام) يريده حينما قال «(هذا القرآن) لن ينطق».

ويتضح مما بحثناه أن أتباع التفسير الموضوعي اعتقدوا خطأً أن القرآن يتضمن نظرياتٍ منظمةً فيما يرتبط بالموضوعات التي يرمي المفسرون البحث حولها، وهذه النظريات يمكن سؤال القرآن عنها، والقرآن يجيب عن هذه الأسئلة بصورة صريحة. وبهذه الطريقة وطبقًا للمعتقدين بالتفسير الموضوعي، فإنه على أساس منهج «الاستنطاق» مثلما أوضحوه، يمكن استخراج نظريات محددة حول موضوعات معينة من القرآن بصورة مباشرة. إلا أن هذه الرؤية تستند إلى نوع من المقاربة الخاطئة من الناحية المعرفية والمنهجية. ويمكن مقارنة خطأ هؤلاء المفسرين مع الخطأ الذي ارتكبه فلاسفة الوضعية من جهة، ومنتقدوهم - أي الكتّاب الذين يعتقدون بـ «العلوم الثقافية» (/kulturwissenschaften geisteswissenschaften) - من جهة أخرى. فالوضعيون يرون أنه في الإمكان الاستعانة بمشاهدة أمور الواقع والمعطيات الموجودة وتجربتها بصورة المباشرة، ومن ثم يتم الحصول على الفرضية عن طريق الاستعانة بالنماذج الموجودة في أمور الواقع والمعطيات، وعندئذ يمكن من خلال دراسة الفرضيات بهدف تأييد صحتها وحذف عدد منها إنتاج النظريات. والوضعيون يعتقدون أن المحققيين لو يصفّون أذهانهم وضمائرهم تمامًا من كل الفرضيات والخلفيات المعرفية، يمكنهم «مشاهدة» نماذج محددة في أمور الواقع والمعطيات، وهذه النماذج ترشدهم نحو الفرضيات المناسبة للظواهر. وفي قبال ذلك، فإن الظاهراتيين (الفينومينولوجيين) كإدموند هوسرل مثلًا الذين يؤكدون من جهة أن «الوضعية الأصيلة ليست شيئًا سوى الظاهرتية»[31] يرون أنه في الإمكان من خلال المشاهدة والتقرير الدقيق الوصول إلى الظواهر ذاتها. ومن أجل الوصول إلى هذا المرام، يجب على الظاهراتي إعمال المناهج الموسومة بـ «التعليق» (Epoche) و«الوضع بين الأقواس» (Bracketing) في مورد مشاهداتهم، والابتعاد عن استخدام أي نظرية، والانتباه إلى أن صرف ما يظهر في المقابل هو توصيف لما هو موجود بعينه[32].

لكن إشكالية المقاربتين الوضعية والظاهرتية معًا تكمن في أن كلا الفريقين قد أغفل هذه المسألة الأساسية وهي: «المشاهدات المعقدة كافة هي في النظريات ومسبوقة بها» وليس هنالك مشاهدة عمومًا لا يمكنها قبول النظرية والتخمين. وحتى المولود البشري، فإن قدمه تطأ العالم بمعية مجموعة من الخلفيات والتوقعات. ونحن «نشاهد» الأمور في ضوء النظريات والمعارف (التخمينية بأجمعها) فقط[33]. والفريق الآخر من المعتقدين بـ «العلوم الثقافية» أي الهرمينوطيقيين، فقد ارتكبوا خطأً من نوع آخر؛ فهم يدعون أن ما نسميه «الفهم» يختلف تمامًا عمّا نطلق عليه «التفسير». فالأول هو نوع من الإدراك الذاتي والشخصي والذهني، في حين أن الثاني تفسير عيني. إن خطأ هذا الفريق يكمن في أنهم لم يلتفتوا إلى أن التفسير أو الفهم أو الإدراك الذاتي والشخصي والذهني لظاهرة معينة، أو نص، أو حادثة، لا يمكن أن يعتبر معرفةً بالمعنى الدقيق للكلمة. فهذا النوع من الأمور الذاتية والذهنية لا يمكن إخضاعه للتقييم النقدي بصورة عينية وعلى المستوى العام، وفي غياب إمكانية هذا النوع من التقييم، فإن نظير هذه الادعاءات المعرفية ليس لها أي فرق مع «الرؤى والعقائد الشخصية والفردية»؛ فهذا النوع من الآراء الفردية لم يخضع للنقد ولم يخرج بنجاح من محكه، ومن ثم لا يعتبر معرفةً:

31 - Edmund Husserl, *Idea: General Introduction to Pure Phenomenology (London: Routledge, 2012 [1931]); D. Sinha, "Phenomenology and Positivism," Philosophy and Phenomenological Research, vol. 23, no. 4 (1963), pp. 562-577.*

32 - Paya, *Methods, Methodologies and Perspectives.*

33 - Popper, *Conjectures & Refutations, The Myth of rge Framework; Paya, Methods, Methodologies and Perspectives;*

فاعتبار كل واحد منها هو بمقدار اعتبار الآخر، ولا أحد منها يتوفر على مقومات المعرفة العينية[34].

وبالالتفات إلى ما تم توضيحه سابقًا، يمكن الآن بوضوح فهم سر رؤية آية الله الصدر وغيره من المعتقدين بمنهج «الاستنطاق»، كما أوضحه الشهيد الصدر، بمعنى أن الاستفسار من القرآن وتوقع الإجابة منه هما رؤية غير صائبة.

وعلى عكس رؤية الشهيد الصدر وغيره ممن تطرقوا إلى شرح منهج «الاستنطاق»، فإن القرآن لا يقدم إجابةً مباشرةً لأي سؤال؛ فالقرآن بمنزلة قسم من الواقعية، ويعمل على الحكم على التخمينات التي نعرضها عليه. وعمل القرآن (إحدى الوظائف الثلاث التي تقدّم توضيحها) هو تصحيح اختلالات تخميناتنا وإيضاحها، وليس عرض أجوبة مباشرة لأسئلتنا. وللاستفادة من القرآن في مقام التقييم النقدي، يجب تحمّل مشقة إنتاج النظرية والتخمين، وبعد ذلك نفتح مجال الحوار النقدي مع القرآن. وبهذا اللحاظ، لا يوجد فرق بين القرآن والطبيعة؛ لأن الطبيعة بدورها لا تقدم جوابًا مباشرًا، وإنما توضح خطأ التخمينات التي أنتجناها من أجل معرفة أسرارها. فمن أجل الاستفادة بدرجة قصوى من قدرة توضيح الأخطاء، سواء على مستوى الطبيعة أو على مستوى القرآن، يجب العمل على تنظيم التخمينات والنظريات بحيث تصبح واضحةً وخاليةً من أي إبهام وازدواجية وأمثال ذلك، إلى درجة يتم فيها اكتشاف أي خطأ محتمل بسرعة. والاستعانة بالطرق التبريرية من أجل إخفاء الأخطاء المحتملة وتحصين التخمين في قبال الانتقادات، هو أمر غير أخلاقي يحول دون التطور المعرفي المنضبط.

والمسألة الأخرى التي يلزم ذكرها في توضيح خطأ منهجية اتباع أسلوب «الاستنطاق» بطريقة الشهيد الصدر وآية الله صادق الطهراني هو أنه على عكس ادعاء الطهراني، فإن تصفية الذهن من كل المعارف والفرضيات والخلفيات لا تسهم في الفهم الأفضل لرسالة القرآن، بل تسدّ من الأساس طريق تطور المعرفة. ويوضح العقلانيون النقديون أنه أولًا: لا يمكن تخلية الذهن من كل الفرضيات المسبقة والمعلومات القبلية بتاتًا، وثانيًا، على فرض أن هذا الأمر ليس بمُحال، فإن الذهن الذي يُستبدل بلوح خالٍ من أي معرفة لن يكون في إمكانه تعلم شيء[35]. وفي ختام هذا المحور، قد لا تخلو الإشارة إلى مسألتين من الفائدة؛ الأولى هي أنه طبقًا لما قيل، لا يمكن توقع الإجابة المباشرة عن الأسئلة التي تُطرَح من القرآن، وعليه فكيف كانت سنة «التفاؤل بالقرآن» و«الاستخارة بالقرآن» رائجةً في الكثير من المجتمعات الإسلامية منذ القديم، وتبحَّر فيها أفراد إلى الحد الذي يطلعون الشخص في بعض الحالات على جواب المسألة قبل أن يطرح السؤال حتى. وفي العصر الحالي يمكن الرجوع إلى بعض مقاطع الفيديو من خلال شبكة الإنترنت ومشاهدة بعض الأفراد الذين يتلبسون بلباس علماء الدين، ومن حولهم أفراد متعددون من كل جانب، والكثير من هؤلاء يحمل جهاز الهاتف معه ويجيب عن اتصالات مقدمي الطلبات من أقصى نقاط العالم من دون توقف، وفي كل اتصال بمجرد إلقاء نظرة سريعة في القرآن ومن دون أنْ يعطوا فرصةً كافيةً لقراءة آياته، فإنهم يجيبون عن الاتصالات، ويبدو أنهم يساعدون الناس في اتخاذ قراراتهم.

ويوضح العقلانيون النقديون هذه المسألة وهي أن «اتخاذ القرار»، ليس بالأمر الذي يتعلق بمجال الأمور العقلانية والمعرفية؛ فـ «اتخاذ القرار» يرتبط بمجال الأمور العملية. وبهذا الاعتبار، ليس هنالك شيء يُطلق عليه «اتخاذ القرار العقلاني»، وما يمكن أن يكون عقلانيًا، هو العملية التي تُطوى من أجل اتخاذ القرار. فلو أن شخصًا يقوم بتقييم الأبعاد المختلفة للمسألة على نحو عقلاني من أجل الوصول إلى اتخاذ القرار، وفي الأخير يميز طريقًا يكون أنسب من الآخر، ففي ضوء مقتضيات هذا الطريق الأنسب يتخذ القرار ويعمل وفقه، عندئذ يمكن القول إنه قد طوى العملية العقلانية من أجل اتخاذ القرار. لكن لو أن هذا الشخص، من أجل الوصول إلى الهدف المنظور، يستفيد من التفاؤل بالعملية، فإن العملية المستخدمة ليست عقلانيةً[36].

---

34 - Paya "The Misguided Conception";

بايا، الفلسفة التحليلية من منظور العقلاني النقدي.

35 - Popper, *The Myth of the Framework, Ch. 1.*

36 - David Miller "Deductivist Decision Making," Unpublished Manuscript (2009).

والآن إذا كان منهج البعض هو أن يتمسك بالقرآن حتى يتمكن من اتخاذ القرار بهذا الشكل، فيقوم بعرض المسألة المحورية - أي طريق الحل الذي يكون قد بحثه على نحو عقلاني - على القرآن حتى يخضع للتقييم النقدي، أو أنه يلجأ إلى القرآن حتى يستلهم منه طريق الحل الذي يتتبعه، وليس أنه يستخرج طريق الحل منه، ولا أنه يتوقع جوابًا عمليًا واضحًا من هذا الكتاب، ففي تلك الحالة فإن استفادته من القرآن مقبولة. لكن في غير هاتين الحالتين، فإن «مجرد فتح الكتاب» بالطريقة التي ذُكرت آنفًا، هو إهانة مباشرة وجرأة كبيرة على كتاب الله، وقد حطّوا من مكانة هذه الأمانة القيمة إلى مستوى التفاؤل بالعملية.

والمسألة الثانية هي أن القرآن – بشهادة الكثير من آياته - قد أُنزل من أجل هداية البشرية كافةً (في كل الأزمنة والأمكنة). وإذا كان الأمر كذلك، فإن آيات هذا الكتاب يجب أن تكون قابلةً للفهم من قِبل كل من يقرؤه، سواء كان من العلماء أو المحققين الباحثين أو عامة الناس. في حين يبدو أن المنهج المقترح في المقالة، هو منهج نخبوي ويمكن أن تناله شريحة معينة ممن تتمتع بقدرة إنتاج التخمينات ونقدها بالاستعانة بالقرآن، أو من يحظى بتجارب حية غنية تمهد له الأرضية للإلهامات القرآنية، أو من لديه قابلية للعثور على المسألة في القرآن بالاستعانة بفكرة إشكالية البحث. ونظير هذه الأمور التي يبدو أنها بعيدة عن متناول الأفراد العاديين.

والجواب عن هذا هو أن المنهج المقترح من قبل العقلانيين النقديين، هو ذو طابع إجرائي ديمقراطي بصورة كاملة، وفي متناول عموم الناس. وهذا المنهج يختلف تمامًا عن المناهج النخبوية لمن يعتقدون أن الحقيقة هي في متناول فئة قليلة تتمتع بخصائص استثنائية ومميزة. ويوضح العقلانيون النقديون أن التخمين في قبال الإشكاليات الواقعية والسعي من أجل الوصول إلى طريقة حل في صورة الحدس والفرضيات هي أمر لا مفر منه للجميع، بما في ذلك المواليد حديثي الولادة من البشر، إذ إنهم ليسوا قادرين على ذلك فحسب، بل هم عاملون به[37]. ومن جهة أخرى، يعتقد العقلانيون النقديون بنظرية الصدق التطابقية وبتقييم الادعاءات المعرفية على المستوى العام. وتقع هذه المقاربة كذلك في النقطة المقابلة تمامًا لتلك المجموعة من النظريات المعرفية النخبوية التي يطلق عليها نظرية «مظهرية الحقيقة»، وتعتقد أن فريقًا فقط من النخبة يتمتع بقدرة «رؤية الحقيقة ومعاينتها» وأما البقية فإنهم محرومون من هذا الفيض[38]. لكن يؤكد العقلانيون النقديون هذه المسألة أيضًا، وهي أنه بمقدار ما تكون المعارف القبلية للشخص (كمعرفته العميقة بنتائج المجالات العلمية المختلفة ومعلوماتها) أغنى، وبمقدار ما يكون ذهن الشخص وضميره أكثر تساؤلًا واتّقادًا وانتقادًا، وبمقدار ما يكون أنسه وألفته بالقرآن أكثر، فإن حظه في الانتفاع من المعرفة الأصلية ونيل جواهر المعرفة القيمة أكبر.

سادسًا: الظن واليقين في القرآن: هل العقلانية النقدية في تعارض مع التعاليم القرآنية؟

في هذا المحور، نعالج باختصار إشكاليتين مفترضتين حول مقاربة العقلانية النقدية للقرآن. وقد قدّمنا توضيحًا في المحور الأول سابقًا، من وجهة نظر الرؤية العقلانية النقدية، فإن كل المعارف التخمينية والظنية ستبقى على هذا الحال إلى الأبد. وهذه المسألة قد تأكدت أيضًا، وهي أن اليقين يرتبط بالمجال النفسي للشخص، وليس أمرًا معرفيًا. ومن جهة أخرى، نواجه في القرآن آياتٍ متعددةً أشير فيها إلى مفهوم الظن، وقد حذرت منه فيما يختص باعتباره المعرفي. وفي الوقت نفسه، يبدو أن القرآن يولي اليقين أهميةً فائقةً جدًا. والأمثلة التالية تشتمل على عدد من الآيات التي أشارت إلى مفهومي الظن واليقين: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ (الأنعام: 116)؛ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: 36]؛ ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ

37 - Popper, *The Myth of the Framework, Ch. 1.*

38 - Ibid., Ch. 7.

حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: 99]، ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ﴾ [التكاثر: 5-7]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الواقعة: 95].

وفيما يرتبط بالإشكاليتين المشار إليهما، فالجواب الصريح هو أن «ظواهر الأمور يمكنها أن تكون خادعة وباعثة على الخطأ». ففي كل الموارد سابقًا، وكل الموارد الأخرى التي جاءت في القرآن ولم يتم الإشارة إليها في هذه المقالة، وبقليل من الدقة في التأمل، يتضح أن مفردة الظن وما يرادفها قد استخدمت في القرآن بمعنيين إيجابي وسلبي. وفي كل الآيات التي استعملت فيها مفردة الظن وما يرادفها بمعنى سلبي، فإن مقصود القرآن، بلا استثناء، يشير إلى قراءات واستنتاجات لم تخضع للتقييم والنقد، وقد اعتقد بها أفراد من دون روية وتأمل، بل على أساس التقليد، والقرآن قد ذمّهم نتيجة لذلك. فعلى سبيل المثال في الآية التالية، ينتقد القرآن أولئك الذين يعتقدون أن المسيح قد صُلِب، لأنهم اعتقدوا بظن لم يخضع للتقييم: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: 157].

ومن جهة أخرى، فإن تلك المجموعة من الآيات التي استخدمت فيها هذه المفردة وما يرادفها بمعنى إيجابي، ومن الواضح أن القرآن يؤيد ذلك المعنى، ففي هذه الموارد تفيد هذه المفردة نوعًا من التخمين الذي خضع للتقييم وقد وقع موردًا للقبول. على سبيل المثال: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 46].

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: 118].

وفي الآية التالية يؤكد القرآن بوضوح أن بعض الظنون (وليست جميعها) تستحق اللوم والذم: ﴿ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ ﴾ [الحجرات: 12].

وبعبارة أخرى، ومثلما تم توضيحه، يبدو أنه كلما استخدمت مفردة الظن وما يرادفها في معنى «الإدعاءات المعرفية التي لم تخضع للبحث والنقد»، فإن القرآن يردها ويذمها باعتبارها منشأً لسوء الفهم أو لسوء العمل. إلا أن هذا المعنى للظن يختلف اختلافًا جذريًا مع مراد العقلانيين النقديين. ففي رؤية العقلانيين النقديين، مثلما توضَّح سابقًا، فإن التخمينات والظنون باعتبارها ادعاءات معرفيةً مقترحةً ومعروضةً يجب أن تخضع لأقسى معايير التقييم. وتلك المجموعة من التخمينات التي تدحض وتبطل تكشف لنا بطريقة سلبية مسألةً حول الواقعية (سواء الواقعية الطبيعية أو الواقعية المنتجة اجتماعيًا بما في ذلك النصوص). تلك المجموعة من التخمينات التي تخرج من محك الاختبارات الصعبة بنجاح، تقبل مؤقتًا باعتبارها معرفةً إيجابيةً حول الواقعية، إلى أن تستبدل بتخمين أفضل. وفي كلا الموردين، فإن التخمينات والظنون إنما تحظى بالعناية والاهتمام حينما تجتاز غربال النقد والتقييم الدقيق.

وحول الآيات التي استُفيد فيها من مفردة اليقين، فإنه بقليل من دقة التأمل يتضح أن القرآن في كل هذه الموارد ناظر إلى التجارب الشخصية والفردية، بيد أنها تختلف فيما بينها شدةً وضعفًا وتمتاز من بعضها البعض وفق ثلاثة عناوين «علم اليقين» و«عين اليقين» و«حق اليقين». وأول أنواع اليقين هو اليقين الذي يحصل للشخص على نحو نظري. وثانيها هو الذي يتحقق عبر شهادة الحواس. وثالثها الذي يعتبر من أعمق أنواع اليقين، فالظاهر أنه يشير إلى نوع من تجربة الاتحاد الوجودي بين فاعل المعرفة وموضوعها.

ويمكن إدراك شخصية مفهوم اليقين وفرديته في القرآن بصورة أفضل بالنظر إلى الآيات الأخرى التي استخدمت هذه المفردة، فعلى سبيل المثال نقرأ في الآية: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي ﴾ [البقرة: 260].

والمسألة القرآنية الأخرى التي تسلط الضوء أكثر على البحث الحالي هي أن هذه التوصية هي للمؤمنين، وأنه لا يجب التوقف عن بذل الجهد والسعي من أجل تطور المعرفة والاقتراب أكثر من معرفة أحق بمالك الوجود، كما يجب النظر إلى هذا الأمر باعتباره فعاليةً مستمرةً وسعيًا لا نهاية له. فعلى سبيل المثال نقرأ في هذه الآية من سورة الشرح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: 7].

وعلى الرغم من أن المخاطب الأولي لهذه الآية، بل كل آيات سورة الشرح، هو النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، فإنه وبالالتفات إلى أن النبي هو أفضل أسوة للمؤمنين، فما يتوقع منه، فهو لبقية المؤمنين أيضًا أسوة وتوصية ووصفة. هذه المسألة تقوّي بعدًا آخر في مقاربة العقلانية النقدية للقرآن وهي أن جهودنا المعرفية هي عملية لا نهاية لها: السعي في سبيل إنتاج التخمينات الجديدة من أجل معرفة أبعاد جديدة للواقعية (بما في ذلك الواقعيات المندرجة في القرآن) والتقييم النقدي لها واستبدالها بتخمينات أفضل، والتعلم عن طريق تدارك الأخطاء، هو سعي حثيث لا بد من أن يستمر ما دام الإنسان والعالم قائمين، وبهذه الطريقة فقط يمكن التفاؤل بتطور المعرفة والاقتراب أكثر من معرفة حقيقة الواقعية.

خاتمة واستنتاجات

العقلانية النقدية هي مقاربة تفيد في الانتفاع من القرآن باعتباره منبعًا معرفيًا غنيًا، على غرار كتاب الطبيعة. وعلى أساس هذه المقاربة، فإن القرآن يمكن أن يساهم بثلاث طرق لأولئك الذي يرجعون إليه في جهودهم المعرفية فيما يرتبط بـ «شروط الأوضاع والحالات الإنسانية». الأولى أنه يفي بدوره باعتباره حاكمًا ناقدًا في تقييم التخمينات التي تصاغ بنية حل مسائل معينة ناظرة إلى مجال «الأوضاع والحالات الإنسانية». والثانية تساعد في السعي المعرفي الحثيث باعتباره منبعًا ملهمًا للتخمينات والمشاهدات. والثالثة والأخيرة، هي جذب اهتمام الباحثين نحو مسائل بديعة في مجال الأوضاع والحالات الإنسانية. اهتمت المقالة كذلك بهذه المسألة، وهي أن المنهج الذي عرضه الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة تحت عنوان «استنطاق القرآن» ليس بمعنى طرح السؤال على القرآن وطلب الإجابة منه، وإنما معنى استنطاق القرآن أشبه بالمعنى الذي يقترحه العقلانيون النقديون.

المراجع

أبو زيد، نصر حامد. **مفهوم النص: دراسات في علوم القرآن.** الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990.

بايا، علي. **الفلسفة التحليلية من منظور العقلاني النقدي.** طهران: دار طرح نو، 2016.

حسين، صفره ومعارف مجيد وپهلوان منصور. "استنطاق قرآن". **پژوهش هاي قرآن وحديث.** مج. 43، العدد 1 (2010). في: https://bit.ly/39CkFUS

سروش، عبد الكريم. «محمد: راوي الأحلام النبوية». **راه سبز** (2013). في: https://bit.ly/3bHQVbB

الصدر، محمد باقر. **المدرسة القرآنية.** بيروت: دار الكتب الإسلامية، 1424هـ

يساق، على أصغر وسيد محمد على أيازى. "تحليل مبادئ ونهج الشهيد الصدر في تفسير القرآن». **العدد الخاص في الفقه وتاريخ الحضارة.** مج. 6، العدد 25 (2010).

Abu Zayd, Nasr Hamed. "The Qur'an: God and Man in Communication." Universiteit Leiden (2000). at: https://bit.ly/3oPdX4g

Asia, Europe, and the Emergence of Modern Science: Knowledge Crossing Boundaries. Aron Bala (ed.). London: Palgrave, 2012.

Bartley, William III. "The Philosophy of Karl Popper: Part III. Rationality, Criticism, and Logic." *Philosophia*. vol. 11, no. 1–2 (1982).

Becker, Kate. "Is Information Fundamental?" *PBS*. 26/4/2014. at: http://to.pbs.org/3sj68G5

Davies, Paul. *The Mind of God*. New York: Simon & Schuster, 1992.

Husserl, Edmund. *Idea*: *General Introduction to Pure Phenomenology*. London: Routledge, 2012 [1931].

Jeffery, Arthur. *The Foreign Vocabulary in the Quran*. Leinden: Brill, 2007.

Laws of Nature: Essays on the Philosophical, Scientific and Historical Dimensions. Friedel Weinert (ed.) Berlin: Walter de Gruyter, 1995.

Luxenberg, Christoph. *The Syro-Aramic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Koran*. Berlin: Verlag Hans Schiler, 2007.

Miller, David. *Out of Error.*London: Routledge, 2017 [2006].

_____. "Deductivist Decision Making." Unpublished Manuscript (2009).

Paya, Ali. "What and How Can We Learn from the Quran? A Critical Rationalist Perspective." *Islamic Studies*. vol. 53, no. 3 (2014).

_____. "Critical Rationalism as a Theoretical Framework for Futures Studies and Foresight." *Futures*. no. 96 (2018).

_____. Islam, modernity and a new millennium: *Themes from a critical rationalist reading of Islam*. London: Routledge, 2018/2019.

_____. *Methods and Perspectives in Islamic Studies*. Londn: ICAS Press, 2020.

Popper, Karl. *The Logic of Scientific Discovery*. London: Routledge, 2002 [1934, 1959].

_____. *The Open Society and Its Enemies*. London: Routledge, 2002 [1945].

_____. *The Poverty of Historicism*. London: Routledge, 2002 [1945].

_____. *Conjectures and Refutation*. London: Routledge, 2002 [1963].

_____. *Objective Knowledge*. Oxford: Oxford University Press, 1979 [1972].

_____. *The Myth of the Framework*. London: Routledge, 1994.

Sinha, D. "Phenomenology and Positivism." *Philosophy and Phenomenological Research*. vol. 23, no. 4 (1963).

Singh, Simon. *Fermat's Last Theorem*. London: Fourth Estate, 2002.

The Crisis of the Human Sciences False Objectivity and the Decline of Creativity. Thorsten Botz-Bornstein (ed.). Kuwait: Gulf University for Science & Technology Publications, 2011.

The Universal Turing Machine: A Half-Century Survey. Rolf Herken (ed.) Oxford: Oxford University Press, 1998.

Trigg, Roger. *Reality at Risk*. New Jersey: Prentice-Hall, 1990.